رسالتان على غرار الغفران والتوابع والزوابع

بقلم الدكتور احسان عباس
استاذ بالجامعة الامريكية (بيروت)

تحتل رسالة الغفران للمعـــرى ورسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الاندلسى مكانة هامة فى تاريـخ النثر الفنى العربى ، لما فيهما من خصائص الابداع فى الطريقة ، وما تتميز به كلتاهما فى طبيعة الخيـــال والسخرية ، وقد كانت المصادفة وحدها هى العامـــل الذى أدى الى ظهور هـــاتين الرسالتين فى تاريخـين متقاربين فى القرن الخامس الهجرى ، ويظل التبايـن بينهما قائما فى حقيقة الدوافع والغايات وفى النسق والاسلوب والتخيل وما الى ذلك من شؤون . وقد كنت دائما أتساءل : هل ظلت هذه الطريقة القائمة على تصور رحلة الى عالم غير هذا العالم مقصورة فى تاريخ النثـر العربى على هاتين الرسالتين ؟ ألم تترك الرسالتان أى أثر فى ما جاء بعدهما من نثر ولو على سبيل المحاكاة والاحتذاء ؟ وقد هدانى البحث أخيرا الى اكتشاف أثرين نثريين آخرين أقيما على مثال رسالتى المعرى وابن شهيد وينتميان الى فترتين متفاوتتين ، ولكن مما يلفت النظر أن صاحبيهما ينتميان الى المغرب العربى – بالمعنى الواسع – فأول الاثرين هو «المنام الكبير» للوهرانى ، فى القرن السادس الهجـــرى ، وثانيهما هـــو رسالة «السائل والمجيب» وهى مـــن انشاء أديب أندلسى مهـاجر الى المغرب . وغايتى فى هذا البحث لا تتعدى التعريـــف بهذين الاثرين وبصاحبيهما :

I – تعريف بالوهرانى (1) ورسالته التى تسمى «المنام الكبير» :

اسمه محمد بن محرز بن محمد وكنيته أبو عبد الله ، ونسبته تدل على أن أصله من مدينة وهران ، فهـــو مغربى الاصل ، هاجر الى مصر فى أيام صـــلاح الدين الايوبى ، حيث عرف بلقب « ركن الدين » او « جمال الدين » ، فلما دخل مصر ووجد بها أعلام الكتاب أمثال القاضى الفاضل والعماد الاصفهانى وغيرهما أدرك أنه لا يستطيع منافستهم فى الطريقة النثرية « فعـدل عن طريق الجد ، وسلك طريق الهزل ، وعمـــل المنامات والرسائل المشهورة به والمنسوبة اليـه » (2) وبهذه الطريقة استطاع ان يتميز بين معاصريه حين اتجه الى الفكاهة والسخرية اللاذعة . «فرفرف عليه جانب من الحنو الفاضلى ، ورق عليه كما يرق عتيق البابلى» (3) ، وقد وظف الوهرانى خطيبا للمسجد الجامع بداريا ، قرب دمشق ، فتعرف الى هذه المدينة والى كثير مـــن رجالاتها ، وهاجم بعضهم فى نثره ، وظـل فى الشام الى أن توفى فيها فى رجب عام 575 ودفن على باب تربة الشيخ أبى سليمان الدارانى . (4)

وقد احتفظ العمرى فى مسالك الابصار بقطعـة كبيرة من نثر الوهرانى تمكن الدارس من الحكم على اتجاهه العام فيه . واستطيع أن أقول ان نثره يعتمـد

---

(1) راجع ترجمة الوهرانى فى ابن خلكان 4 : 19 (ط. الشيخ محيى الدين عبد الحميد) والوافى للصفدى 4 : 386 والعبـر للـــذهبى 4 : 225 وشذرات الذهب لابن العماد 4 : 252 ومسالك الابصار 13 : 27 مخطوطة آيا صوفيا رقم : 3426) .
(2) ابن خلكان 4 : 19 .
(3) مسالك الابصار 13 : 27 ب
(4) ابن خلكان 4 : 19

محاكاة النماذج المشهورة فى تاريخ النثر العربى ، وتحويل الجاد منها الى صور ساخرة عابثة مليئة بالبذاء والفحش أحيانا ، حادة نافذة لذاعة فى أحيان أخرى ، ولا نعدم أن نجد فى بعضها غايات اصلاحية ونقدا بناء ، كما أن كثيرا منها انتقامى ذاتى موجه الى بعض أعلام عصره ـ تصريحا او تعريضا ـ .

ففى احدى الرسائل يصور الوهرانى جوامع الضياع فى الشام وقد تجمعت وذهبت وافدة الى «ملك الجوامع» ـ المسجد الاموى ـ تشكو اليه ما أصابها من خراب ، حاملة معها رقعة من انشاء جامع النيرب ، جاء فى فاتحتها : «المماليك مساجد الكورة يقبلون الارض بين يدى الملك المعظم الرفيع المكرم ، كهف الدين ، جمال الاسلام والمسلمين ، بيت الاتقياء والصالحين ، مدفن الانبياء والمرسلين .... وينهون اليه ما يقاسون من جور العمال وتضييع الاعمال ونهب الوقوف وخراب الحيطان ....» (5) ويطل «ملك الجوامع» على هذا الوفد فيبكى لما يراه من اختلالهم وسوء حالهم ، وعندئذ يبتدر جامع المزة بخطاب يشكو فيه حال المساجد التى «خلت من الراكع والساجد ، فأصبحت جوامع الغوطة غيطان ، لا سقوف لها ولا حيطان ، ومشاهد البقاع ، صفصفا كالقاع ، ومساجد حوران ، مخازن وأفران » (6). فيجيب الجامع الاموى بأن المسؤول عن ذلك كله هو الشيخ أبو سعد بن ابى عصرون (7) ، ولهذا يوجه اليه رسالة ثائرة هائجة يقول فيها : « أما بعد ياغدار فقد هيجت الالم ، وأبهمت الظلم ، ومن استرعى ظالما فقد ظلم ، كم تغاضينا عن خياناتك ، وتغافلنا عن جناياتك ، حتى اكتنزت الاموال وادخرتها ، وجمعت الذخائر واعتزلتها ...» غير أن ابن أبى عصرون لم يذعن لهذا الوعيد بل رد على رسالة الجامع الاموى برسالة أشد عنفا ، ساق فيها التهم للجامع نفسه ، وعد ما أصابه من خراب وحريق نكالا من الله . فلما وقف الجامع على هذه الرسالة قام وقعد وابرق وأرعد وكتب رسالة الى السلطان يشكو فيها ابن أبى عصرون، فما كان من السلطان الا أن عزله والقاه فى السجن .

فهذه الرسالة صورة مما يحدث فى المقامات السياسية او القضائية ، فى مجلس يقوم فيه واحد بعد آخر ليبدى رأيه ، وهى تذكرنا بما أقبل عليه الاندلسيون من تصوير اجتماع صنوف الازهار فى مجلس واحد لتبايع نوعا من الزهر ـ هو الورد فى الغالب ـ وكل زهر منها يقدم بين يدى البيعة بخطبة ، ثم تكتب الازهار «صورة» البيعة للزهر الذى اجمعت الآراء على تقديمه (8) . كذلك فانها تذكرنا بقيام الخطباء بين يدى بختيار بن معز الدولة البويهى عندما اعتدى الروم على حدود الدولة الاسلامية عام 363 ، فى مجلس صوره أبو حيان التوحيدى فى كتابه «الامتاع والمؤانسة» (9) على طريقته الخاصة فى تصوير مثل هذه المجالس . ولا أستبعد أن يكون الوهرانى متأثرا بالتوحيدى فى هذا اللون من الترسل تأثرا مباشرا ، وانما استدل على ذلك من رسالة أخرى له صور فيها مجالس الطرب والتأثر بالغناء مقتفيا فى هذا خطى التوحيدى . يقول الوهرانى فى هذه الرسالة الثانية : «ولا طرب فلان الفلانى لما اجتمع فى دعوة فلان ليلة السبت العشرين من محرم هذه السنة وغنت له بالدف :

ما غير البعد ودا كنت أعرفه
ولا تبدلت بعد الذكر نسيانا
ولا ذكرت صديقا كنت آلفه
الا جعلتك فوق الكل عنوانا

فانه لما سمع ذلك قام وقعد ، وصاح ولطم ، وفتل شعر عنفقته ، وأدار طربوشه على رأسه ، وخرق غلالته ... وجرى الى الشمعة ليحرق لحيته .... لا والله ، ولا طرب ابن رئيس فلان بن فلان فى دعوة فلان ليلة الثلاثاء العاشر من صفر ، لما غنت له فارس الشام :

أرى بيت لبنى أصبح اليوم يهجر
ومن أجل لبنى ذلك البيت يشكر

---

(5) المسالك : الورقة 27ـ28 .
(6) المصدر نفسه .
(7) هو عبد الله بن محمد بن ابى عصرون (585) كان من أفقه أهل عصره واليه المنتهى فى الفتاوى والاحكام ، بنى له نور الدين المدارس بحلب وحمص وحماه وبعلبك وبنى هو لنفسه مدرسة بحلب واخرى بدمشق وتولى النظر فى الاوقاف ، وفى سنة 573 ولاه صلاح الدين القضاء (انظر طبقات السبكى 4 : 237 وشذرات الذهب 4 : 283) .
(8) انظر نماذج من هذه المجالس فى كتاب : «البديع فى وصف الربيع للحميرى» تحقيق هنرى بيريس ، ط. الرباط 1940 .
(9) راجع الامتاع والمؤانسة 3 : 152ـ159 .

لقد كـــان فيها للامانة موضـــع
وللسر كتمـــان وللعين منظـــــر
فان تكـــن الدنيا بلبنـــى تقلبت
على فللـــدنيا بطـــون واظهـــر

فانه لما سمع بذلك طرب طربا عظيما ، وضرب بعمامته وجه المغنى ، وخلع ثيابه ، وبقى عريانا بالفقس، وأقبل يمشى على أربعة ... وهو ينبح ألوانا من النباح ويقـــول : أنـــا كلـــب ابـــن كلـــب ، اصفعـــونـــى بالنعال .... الخ» (10)

فهذا الفصل من الرسالة كله تقليد لما جاء عند أبى حيان فى الامتاع والمؤانسة فى وصـــف مجالس الطرب ، اورد منه للمقارنة هذه الفقرة : «ولا طـــرب ابن فهم الصوفى على غناء نهاية جارية ابن المغنى اذا اندفعت بشدوها :

أستودع الله فى بغـداد لى قمـرا
بالكرخ من فلك الازرار مطلعـــه
ودعتـــه وبـــودى لـــو يودعنى
صفـو الحيـاة وانى لا أودعـــه

فانه اذا سمع هذا منها ضرب بنفسه الارض وتمرغ فى التراب وهاج وأزبد وتعفر شعره ، وهـات مـــن رجالك من يضبطه ويمسكه ، ومن يجسر على الدنـــو منه ، فانه يعض بنابه ويخمش بظفره ويركل برجله ، ويخرق المرقعة قطعة قطعة ، ويلطم وجهه ألف لطمـــة فى ساعة ....» (11) .

غير أن الوهرانى حين الم بهذا الفصل أخرج فيه الصور على طريقته فى المجون والسخف ، ويظل هـــذا الكاتب « يمسخ » الصور الجادة التى جرى عليها كتاب الانشاء ، كان يكتب الى عز الدين بن موسك كتابا على لسان بغلته تشكو فيه حاجتها الى العلوفة ، أو يكتب تقليدا رسميا لمن سماه « قاضى الفاسقين» محاكيا صور التقليد الجدية عند تنصيب القضاة . وهو لا يبنـــى فكاهته على التماجن وحده وانما يعتمد أحيانا المزاوجة المضحكة او التخليط فى ايراد الحقائق ، فمن المزاوجة المضحكة حديثه عن بغلته مقترنة بنفسه ورسمه الفرق بينه وبينها من الناحية العلمية ، وذلك حيث يقول : « ومعلوم ان البهائم لا توصف بالحلوم ولا تعيش بسماع العلوم ، ولا تطرب الى شعر ابى تمـــام ، ولا تعـــرف الحارث بن همام ، ولا سيما البغال التى تشتغل فى جميع الاشغال : مسكبة من القصيل ، أحب اليها مـــن كتاب التحصيل ، وقفة من الدريس ، أشهى اليها مـــن فقه محمد بن ادريس ، لو أكل البغل كتـــاب المقامات مات ، ولو قيل له أنت هالك ، ان لم تأكل موطأ مالك ، ما قبل ذلك ، وكذلك الجمل ، لا يتغذى بشرح ابيات الجمل ، وحزمة من النكلا ، أحب اليه مـــن شعر أبى العلاء ....» (12) ومن التخليط فى الحقـــائق قوله : « ألا ترى أنه قال البارحة لجماعة من جلسائه الذيـــن يبيتون معه : من منكم يحفظ قول النابغة الذبيانى فى سيف الدولة بن حمدان لما شتمه المعتصم بمحضر من أبى هريرة رضى الله عنه » . (13)

ولما كان التعريض فى مثل موقف الوهرانى ضروريا هاما نراه لجأ الى المنامات ، وفى هذه المواقف الحلمية وجد فى رسالة الغفران والتوابـــع والزوابع مثلين يحتذيهما ، فنراه فى رسالة كتب بها الى مجد الديـــن ابن المطلب يحاكى ابن شهيد جاعلا بطل رسالته جنيا اسمه « ابو خطرش » ، ومن الطريف ان الوهرانى رسم « أبا خطرش» مماثلا للقاضى الفاضل فى الشكل فقال : « فلم يشعر الا والحيط الشمالى قد انشق وخرج منـــه شخص عجيب الصورة ليس له رأس ولا رقبة البتة ، وانما وجهه فى صدره ولحيته فى بطنه ، مثـــل بعض الناس » (14) فقوله «مثل بعض الناس» اشارة الى خلقة القاضى الفاضل ، وكان قصيرا أحدب قد غاص رأسه فى جسده كأنه دون عنق . وغاية الوهرانى من محاكاة ابن شهيد هنا ان يغمز مـــن فقيه متهـــم بتبديد مـــال الاوقـــاف .

وأما محاكاته لرسالة الغفران فتتجلى فـــى المنام الكبير الذى وصفه ابن خلكان بأنه طويل فقال : «ولولا طوله لذكرته» . (15) وقد تنبه الصفدى الى أن الوهرانى سلك فيه مسلك أبى العلاء فى الغفران ، غير انه أضاف

---

(10) المسالك : الورقة ؛
(11) أنظر الامتاع 2 : 165ـ182 .
(12) مظالم البدور للغـزالى 2 : 189 والمسالك : الـورقة 30 .
(13) المسالك ، الورقة : 34 .
(14) الوافى للصفدى 4 : 387 .
(15) ابن خلكان 4 : 19 .

الى ذلك قوله : «لكنه الطف مقصدا واعذب عبارة» . (16) ويبدو أن العمرى أورده فى المسالك كاملا (17) . ويجيء المنام ردا على رسالة وصلت الكاتب من الشيخ الحافظ جمال الدين ، كما كانت الغفران ردا على رسالة ابن القارح . ويصف الوهرانى ابتهاجه برسالة صاحبه وأنه من شدة السرور امتنع عليه النوم ، فلما نام : « رأى فيما يرى النائم كأن القيامة قد قامت والمنادى ينادى هلموا الى العرض على الله» .

ويشفق الوهرانى من هول المحشر ويتمنى لو أنه بقى فى الدنيا يتمتع بشىء من لذائذها ومطاعمها ، ويرى صديقه الحافظ العليمى على بعد فيناديه وتقوم بينهما ملاحاة يتهدده فيها العليمى بالاذى ، فيذكره الوهرانى بما هما فيه من ويل ، وما يبعثه فيهما مرأى مالك من رعب ، ولكن العليمى يتوعده بأن يشكوه الى القاضى كمال الدين بن الشهرزورى ، غير ان هذا القاضى كانت صحائفه قد عرضت فوجدت لضخامتها تحتاج لكى يفصل فيها الى يوم قيامة خاص بصاحبها دون سائر الخلق ، ويأخذه جبريل تحت حمايته فليس لاحد عليه من سبيل .

وبينما هما فى جدل ومماحكة ظهر لهما مالك وقبض عليهما فأخذ العليمى يرجوه مناديا : يامال (ترخيم مالك) فيغضب مالك لانه حذف فى النداء ربع اسمه فيعتذر عن ذلك بأنه ما حذفه ترخيما ، وانما من شدة الهلع . ويستمع مالك الى العليمى فيرجوه هذا بأن يطلقهما لان الوهرانى منهما من أهل القرآن والعليمى من أهل الحديث ، ولكن مالكا يعدد عليهما أشياء مما اقترفاه فى الدنيا فيفزعان اذ يجدانه قد أحصى كل شىء ارتكباه ، ثم يطلقهما بعد جهد .

ويدور تهكم الوهرانى فى رسالته على محورين أولهما ان الناس لا ينفكون يوم القيامة يزاولون ما غلب على طباعهم فى الحياة الدنيا ، هو والعليمى رفيقان يحتاج أحدهما للآخر ـ رغم ما بينهما من خلاف ـ ، والمؤيد بن العميد يستعمل فى الآخرة طريقته التى دأب العباس الذى كان مشغولا ببطليموس وشؤون الكواكب والنجوم لا ينفك عن «ضلالته» يوم القيامة ، وقسيم الاعور الذى كان منافقا تارة يتحيز للعلوية وتارة للاموية ما يزال كذلك على حاله فى لحظات الحشر عليها فى دار الحياة فهو ما يزال يطلب بشعر سخيف «الكميتى السابورى والرمان الدبيقى» ولكنه يحاول أن يستر سخافته بتحسين الخط وتنويع الالوان التى يكتبه بها ، وملك النحاة وزين الدين بن الحكيم تثور بينهما ذكريات المهاجاة فى الحياة الدنيا فيحاول الاول منهما أن يكمل تلك السيرة الاولى ، والنقيب أبو الحرجة . بل ان المرء لا يتمنى يوم القيامة الا ما تعوده قبل حلولها ، فالوهرانى يتمنى «رغيفا عقبيا وزبدية طباهجة وجبن سنارى ونبيذا حلبونيا » والعليمى يتمنى « صابونا رقيا » وقليلا من تراب المراغة ليغسل لحيته ويزيل منها ما علق بها من غبار لبده العرق .

واما المحور الثانى فهو أن كل فريق يجد الشفاعة والحماية لدى من أحبه فى الدنيا ـ أما شفاعة النبى محمد نفسه فانها بعيدة المنال اذ يمر يوم القيامة فى موكبه فلا يستطيع المذنبون الوصول اليه من شدة الزحام ـ فهذا القاضى كمال الدين بن الشهرزورى يجد الحماية لدى جبريل لانه «شيخ من شيوخ الاسلام ومن عظماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم وله من اعمال البر ما يوفى عنه مظالم العباد» . وينال مهذب الدين ابن النقاش الطبيب حماية مالك خازن النار لانه كان يريحه فى طبه من قبض النفوس ، بينما العليمى وهو طبيب لم يستطع أن ينال هذه العناية لانه كان يباعد الموت عن المرضى ويبذل كل ما فى وسعه ليكفل لهم الشفاء . وينقسم الناس يوم القيامة لدى ورود الحوض فمن كان يحب عليا ورد فى رعايته وباذنه ، ومن كان يحب يزيد والامويين لجأ اليهم ليعينوه على الورود .

وهنا نجد ان رسالة الوهرانى ليست تهكما بأفراد وحسب . صحيح أنه يتناول الشهرزورى وابن العميد والمهذب بن النقاش ومجير الدين الفقيه وقسيم الاعور والنقيب ابا العباس بالغمز والتهكم اللاذع . وأكبر ضحاياه نصيبا من تهكمه هو ابن النقاش فقد سر الحجاج والشمر وعبد الرحمن بن ملجم حين غفر له اذ تجدد لديهم الرجاء بالمغفرة عند ذلك . وانما تتناول رسالته ايضا الاتجاهات والمذاهب وبعض الطوائف من الناس . فهى تعرض الخصومة بين المتشيعين لعلى والمتعصبين لبنى أمية وتقيم بين الطائفتين يوم القيامة معركة صفين ، وفيها نرى الاكراد وقد انتحلوا ولاء أمويا ونسمعهم يحيون يزيد بقولهم : «السلام عليك يا امام العدل ، السلام عليك يا خليفة الله فى الارض ، السلام عليك يا ابن عم رسول الله .... نفعنا الله بطاعتك وادخلنا فى شفاعتك» . وهو يتهكم بهؤلاء

---

(16) **الوافى** 4 : 387 .
(17) **المسالك** ، **الورقة** 41ـ48 .

الاكراد الذين تحيز لهم القاضى الكردى عبد الملك ابن درباس حتى قال ليزيد حين أوصاه بهم : « ما أحتاج فيهم وصية ، هذا أنا قد وليت القضاء لجماعة منهم أنا أعرفهم في بلادنا لا يعيشون الا من لصوصية البقر فى الليل وسرقة الحمير بالنهار» . على أن حظه على الاكراد وقاضيهم لا يجعله يغفل المقدمين فيهم مثل أسد الدين شيركوه ونجم الدين وصلاح الدين فالاولان منهم ينالان التشريف يوم القيامة ويلبسان خلعتين : خلعة الحج وخلعة الجهاد وهما يوصلان صلاح الدين الى النبى فيمسح على رأسه ويدعو له بالنصر والتاييد ويوصيه بالضعفاء والمظلومين . ولا ينسى الوهرانى حال الصوفية فى عصره فيحرمهم من شفاعة النبى لانهم قوم غلب عليهم العجز والكسل وهربوا من الكد ولا عمل لهم الا الاكل والنوم ولا نفع فيهم للمسلمين فهم «مثل شجر الخروع فى البستان يشربون الماء ويضيقون المكان » . ولا يتورع الوهرانى عن أن ينال ـ فى منامه ـ من الذين يسمون انفسهم الاشراف ـ بمحضر على بن أبى طالب الذى اليه ينتسبون ـ فيذكر منهم ناسا لا يتمالك الحسين حين يسمع أسماءهم من الغيظ ويقول : « اليوم يشمت بنا بنو أمية » .

فليست رسالة الوهرانى ، تصويرا للنعيم او العذاب وما جر ذلك «فى الغفران» الى أمور فى اللغة ، وانما هى تصوير لبعض الناس والطوائف فى ساعات قبل ورود الحوض ، واكثر الشخصيات التى تتناولها من معاصرى الوهرانى ـ وهذا من أقل الجوانب ظهورا فى رسالة الغفران ، ولا يحضر فيها على ومعاوية والحسين ويزيد الا لاستكمال الصورة المتصلة بالخلاف بين المتشيعة والمروانية فى عصر الوهرانى نفسه . ويتنبه فيها الوهرانى الى أمور لم تكن لتعلق بذهن أبى العلاء مثل : هل يستطيع الدائن أن يسترد نقوده من المدين يوم القيامة ، وانما يورد الوهرانى هذه المشكلة ليمعن فى التهكم بابن النقاش فقد كان مدينا للوهرانى بعشرة دنانير فلما اراد اقتضاءها من حسناته ارتفع الضحك من كل جانب ذلك أن ابن النقاش لم تكن لديه حسنات ، فلا يرى الوهرانى سبيلا الى التقاضى الا بأن يحط من ذنوب نفسه على ذنوب ابن النقاش مقدارا يساوى عشرة دنانير . ولكن الوهرانى يلتقى بأبى العلاء فى أمور كتمنيات الآدميين تحقيق ما الفوه فى الدنيا اذا هم بعثوا ، وتناول فكرة الشفاعة ، ونيل بعضهم المغفرة ، دون ان تكون الحسنات راجحة ، ثم يختلفان بعد فى الغايات ونوع السخرية وفى القدرة التخيلية وفى مستوى الاسلوب ، فالوهرانى يكاد يستعمل أسلوبا سهلا قريبا من اللغة الدارجة فى عصره ويحشو رسالته بالبذاء المفحش بينما يعف أبو العلاء عن كل لفظ من هذا القبيل ، كما أنه لا يهتم كثيرا بالتدقيق فى الاعراب (ولهذا تركت ما جاء فى رسالته خطأ دون تصحيح) ويحشد فى رسالته كثيرا من الالفاظ التى كانت شائعة بين العامة فى عصره .

2 نماذج من الفصول التى احتوى عليها «المنام الكبير» :

1ـ خوف الوهرانى من هول المحشر :

« فخرجت من قبرى ايمم الداعى الى أن بلغت الى أرض المحشر ، وقد ألجمنى العرق ، وبلغ منى التعب والفرق ، وانا من الخوف على شر الاحوال ، وقد أنسانى جميع ما قاسيته عظيم ما أعانيه من شدة الاهوال . فقلت فى نفسى : هذا اليوم العبوس القمطرير وأنا رجل ضعيف النفس خوار الطباع ولا صبر لى على معاينة هذه الدواهى . كنت أشتهى على الله الكريم فى هذه الساعة رغيفا عقيبيا وزبدية طباهجة ناشفة وجبن سنارى ونعارة نبيذ حلبونى ، والحافظ العليمى ينادمنى عليها بأخبار خوارزم ، وفخر الدين بن هلال يغنى لى :

يا أهل نعمان انى وجناتكم
تعزى الشقائق لى الى النعمان

وأبو العز بن الذهبى يعينه ويسقينى الصرف من النعارة حتى يعرق جسمى وأغيب عن الوجود فتنقضى عنى الشدائد فى غير معقول » .

2 ـ الملاحاة بين الوهرانى والحافظ العليمى

الوهرانى ينادى الحافظ العليمى فيسرع هذا اليه ويبادره بلكمة ويقول : «ياعدو الله ما كفى انك تخاطبنى بنون الجمع وكاف المخاطب دون أن ذكرت اسمى بغير كنية ولا لقب ! والله لأتوصلن لاذيتك بكل طريق . فقلت له : ياكافر القلب أما ترتدع ، أما ترعوى، أما ترى السماء تنفطر مثل فطائر المزة فى الكوانين ، أما ترى الملائكة منحدرة من السماء زرافات ووحدانا ، أما ترى الميزان يرتعد بما فيه مثل المحموم اذا أخذه النافض يوم البحران ، أما ترى الصراط يرقص بما عليه « رقص القلوص براكب مستعجل » أما ترى مالكا خازن النار وقد خرج منها محملق العينين فى يده اليمنى مصطيحة وفى يده اليسرى السلسلة المذكورة فى القرآن ... »

3 ـ كمال الدين بن الشهرزورى

العليمى يهدد الوهرانى بأن يرفع أمره الى كمال الدين بن الشهرزورى لينكل به جزاء على إستخفافه بالعليمى ، وذلك ان العليمى كان قد سافر مع الشهرزورى الى العراق وحدثه حديث خوارزم وانشده طرفا من شعر ابن بابك فتأكدت بينهما المودة ، فيسأله الوهرانى : «واى شىء لكمال الدين فى هذا الامر ؟ أتبعتنا أحكامه الى هذا المكان ؟ فيقول : نعم عرضوا اليوم صحائف اعماله بين يدى الحق سبحانه وتعالى وهى شىء عظيم مثل جبلى ثبير ولبنان ، فقالت الملائكة : اى رب ، اشغالنا فى هذا اليوم كثيرة وجاء هذا الرجل بأمر عظيم ، وقد سبقه أمم من الناس ، وهو يريد يوم قيامة وحده لا يحاسب فيه سواه وموازين لا يشركه فيه غيره . فقال البارى ـ عز وجل ـ ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة ، سلموه الى الروح الامين . فيقول جبريل عليه السلام : هذا شيخ من شيوخ الاسلام ومن عظماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وله من اعمال البر ما يوفى مظالم العباد ، اوقفوا أمره واحيلوه على بالمطالبات . فدخل فى زمرة الروح الامين فما لاحد عليه من سبيل .

4 ـ ظهور مالك خازن النار :

« وبينما نحن فى المحاورة واذا نحن بمالك خازن النار وقد هجم علينا وقبض على وسحبنا خلفه فارتعنا لذلك ارتياعا عظيما فقلت له : هذا الذى كنت أخوفك منه وقد وقعنا فيه فقلت انت ياسيدى يا مال ، اسمع منى كلمتين لوجه الله تعالى ، فقال : كيف اسمع منك وقد حذفت ربع اسمى فى النداء ؟ فقلت : والله ما حذفته للترخيم الجائز عند النحاة ، وانى لفى شغل عن ذلك ، ما حذفته الا لشدة الهلع وانقطاع مادة الكلام فيقول لك : هات كلمتك ، فيقول : يا سيدى هذا رجل مغربى من أهل القرآن وانا رجل محدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فبأى جرم تأخذنا ـ هنا يعدد مالك عليهما موبقات ارتكباها فيوقنان ان كل شىء قد أحصى ، ولكن مالكا يتركهما بعد جهد فيدخلان فى غمار الناس : ويقترح الوهرانى ان يصعد الى جبل الاعراف لينظرا الى الجنة ، ولكن العليمى يعارضه فى ذلك لان رؤيته النعيم تضاعف عليهما الحسرات .

5 ـ ابو المجد بن عبد الحكم يحمل رقعة كتبها المؤيد بن العميد

وتحين منى التفاتة فأرى أبا المجد بن عبد الحكم عابرا وفى يده رقعة حمراء مذهبة وهو رائح بها يهرول، فسلمنا عليه وسألناه عن حاله فقال : لولا ملازمة الصلاة كنت من الهالكين ، فقال : اين تريد ؟ فقال : ارد هذه الرقعة على صاحبها . فقلنا له : واى شىء فى الرقعة ومن صاحبها ؟ فقال : هذه الرقعة للمؤيد بن العميد بعثها معى الى رضوان يطلب منه كمثرى سابورى ورمان دبيقى لا يوجد الا فى الجنة ، ولقد لقينى أبو الحسن بن منير فخطف الرقعة من يدى وقرأها وقال : هذه رقعة رجل دهان عارف بالاصباغ وانزال الذهب لكنه جاهل بصناعة الكتابة ظاهر التكلف فيها ، يريد أن يتمم نقص الصناعة ويستر عوارها بالاكوان المشرقة والاوراق المصبغة والتذهيب الرائق ... فكن عاقلا وردها على صاحبها قبل ان تلطم على باب الجنة عشرة آلاف زربول ، مثل هذا الملك الكريم على الله يخاطب فى مثل هذه الرقاع ! هذا طلائع بن رزيك مع سخافة عقله وسكره من خمر الولاة قال يوما فى مجلسه لما عرض عليه الشيزرى قصائد الشعراء المكدين من أهل الشام وفى جملتها رقعة ابن العميد فيها سطر مكتوب بالاخضر اليانع وسطر بالاصفر الفاقع وسطر بالابيض الناصع فى الورق الاحمر القانى ، مطرز الجوانب بالذهب الابريز : من صاحب هذه الرقعة يا زكى ؟ فقال : رجل من رؤساء دمشق ومقدميها أحذق الناس بالتزويق فى الاوراق والتصحيف للالفاظ ومعرفة أصناف الفواكه والثمار . فقال له ابن رزيك : ما ادرى ما تقول غير أنك سلبته فضل الفضلاء ونسبته الى الفلاحة والرعونة والجنون ، ومع هذا فهى تدل على جهل قائلها ومهانته ، الا ترى الناس يتوصلون الى برنا بالفضل والبراعة ، وتوصل هذا الرجل بلعب البنات وزخارف الصبيان ! لو كتب هذا الذى فى رقعته على فخذ خروف سمين وألقى فى الطريق لانفت الكلاب من أكله ، ثم ناولها لبعض الفراشين وقال : ادفعها لجارك الفقاعى يلصقها على عتبة دكانه يستجلب بها الزبون ، ثم التفت الى الناس وقال : هؤلاء أهل الشام ورؤساء الدمشقيين ، قال ابو المجد : انا والله ما استجرى اوصلها الى رضوان بعد ان سمعت هذا الكلام وانا رائح اردها عليه .

6 ـ المغفرة تشمل الفقيه المجير والمهذب بن النقاش :

« وبينا نحن فى المحادثة عليها واذا بضجة كبيرة من جنبى المحشر والناس يهرعون نحوها مستبشرين . فملنا جميعا اليها واذا بحلقة بعيدة الاقطار فيها من الامم ما لا يحصى ، كلهم يصفقون ويلعبون ، وثلاثة

فى وسطهم يرقصون ، الى أن سمعوا ووقعوا الى الارض . فسألنا بعض اولئك الحاضرين عن الفرح وعن الثلاثة الذين يرقصون ، فقال : أما الثلاثة فعبد الرحمن بن ملجم المرادى والشمر بن ذى الجوشن والحجاج بن يوسف الثقفى مجرمو هذه الامة ، واما الفرح الذى ألهاهم عن توقع العذاب حتى رقصهم الطرب مع ما كانوا عليه من رجاحة العقل ونزاهة النفس فهو الطمع فى رحمة الله بعد اليأس منها ، والسبب فى ذلك كون البارى ـ عز وجل ـ غفر للفقيه المجير والمهذب بن النقاش ، فخذوا رحمكم الله بحظكم من الفرح والسرور، فقلت له : واى شىء ينالنا نحن من نجاة هذين الرجلين ومن فوزهما بالرضوان ، ونحن الى الحزن أقرب منا للسرور ، فقال : قد أجمع الناس انه لم يولد فى الاسلام مولود قط أرق دينا من هذين الرجلين ولا أقل خيرا منهما ، فاذا غفر لهما فما ذا عسى ان تكون ذنوب الحجاج وأصحابه فى ذنوب هؤلاء ، ان يكن ذلك الا كالشعرة البيضاء فى الثور الاسود » .

7 ـ للوهرانى عشرة دنانير فى ذمة ابن النقاش يريد ان يتقاضاها من حسناته :

« وأقوم وأعدوا ملء فروجى ... الى أن انتهيت الى جماعة كبيرة من الملائكة والناس وهم ينظرون الى ويقولون : هذا هو قد جاء ، وأخالط ذلك الجمع وأتخللهم الى صدر ذلك الملا ، واذا بملك عظيم تقشعر من نظره الجلود وتشمئز من طلعته النفوس ، والمهذب ابن النقاش قائم بين يديه يكلمه بالعجمية ، وهو مقبل عليه بجملته ، فلما أحس بى الملك قال : أذكر سعيدا تره ، والتفت ابن النقاش وقال : اذكر الكلب واستعد له بفهر ، ايش تعمل معى فى ايشم ؟ الذهب الذى لك فى ذمتى ، قد عوقونى عن دخول الجنة لاجله ، فقلت له : طيب والله طيب ، ويبدو لهم ان شاء الله فيك ويردوك الى الجحيم ، أريد الساعة آخذ من حسناتك بعشرة دنانير ما يساوى خمسة عشر دينارا » .

يسخر منه من حوله لحسن ظنه ، ذلك أن ابن النقاش ليست لديه حسنات بهذه القيمة ، فلم يكن صاحب وزد ، ولا كان يصوم الاثنين او الخميس ، ولا هو حج ، واما غزوه مع نور الدين فلم يكن بنية الجهاد ، وأما صلاته فقد وجدوا له ثمانين صلاة فى ستين سنة فيها 28 صلاة بغير وضوء ، وكل صلاة من الـ 52 الباقية تساوى 6 فلوس ، فيقترح الوهرانى أن يخصم من سيئات نفسه بما قيمته عشرة دنانير ويضيفها الى سيئات ابن النقاش ، فيرفض الملك ذلك لان ابن النقاش رجل قد نال المغفرة ـ وكان هذا الملك هو عزرائيل ملك الموت .

8 ـ كيف نال ابن النقاش المغفرة :

« هذا عزرائيل ملك الموت وهو يعنى بالمهذب عناية عظيمة ، وهو الذى شفع فيه وخلصه من العذاب الاليم ، فقلت لكم : ومن أين هذه المعرفة بين المهذب وبين عزرائيل ، فقال لى أبو المجد بن الحكم : من جهة الطب ، أما علمت ان المهذب كان من أعوان ملك الموت فى دار الدنيا ، ما دخل قط على عليل الا وأنجزه فى الحال وأراح ملك الموت من التردد اليه وشم الروائح الكريهة والنظر الى شخصه المزعج وخلصه من الانتظار الطويل ، فهو يرعاه لاجل ذلك ، ويحبه من ذلك الزمان » . وعندئذ يشير على الوهرانى أصحابه بأن يذهب مرة أخرى الى عزرائيل ويسامح ابن النقاش بالدنانير ، فيفعل ، فيبشره عزرائيل بأنه يعيش بعد المهذب عشر سنين ، لكل دينار سنة .

9 ـ التوجه نحو الحوض :

« فقلت لى انت بعد انفصالنا عنه : قد تعبنا يافلان من المحاورة والوقوف واشتد بنا العطش والظمأ ، هل لك فى الحوض نمت عنده بالعلم والقرآن لعلهم يسقونا منه شربة لا نظمأ بعدها أبدا ، فقلت لك : سر بنا ، فتوجهنا نحوه ، وابن بدر معنا ، حتى اذا قربنا منه رأينا أبا القاسم الاعور وحوله جماعة من الاشراف يندفون شعر رأسه بالدلاء والتواسيم ويقولون : يا خنزير : رح الى يزيد بن معاوية يسقيك الماء . فوقفنا ساعة وأحجمنا عن الاقدام خوفا من سوء الادب ، فرآنا تاج الدين الكندى فجاء الينا وسلم علينا فسألناه عن حاله فقال : لو اتبعت مذهب أئمة الحنابلة فى التشبيه هلكت معهم ، ولكنى كنت أسر الاشعرية واضمر المنبرية ، وقد وعدنى الامام الشهيد سيبويه بأن ينفعنى اذا رآنى عند الميزان ، وانتم ما لكم ما تتقدموا تسلموا على أمير المومنين وتاخذوا اذنه فى الورود ، قد أذن اليوم لجماعة من الادباء انحس منكم بكثير ، ولعلكم خفتم مما وقع فيه قسيم الاعور من اللطام ، فقلنا له : نعم ، فقال : حاشاكم أنتم من هذا ، كان قسيم رجلا فضوليا يكاشف الاشراف ويؤذيهم فى كل مكان .

10 ـ الامام على على الحوض :

« فتقدمنا الى امير المومنين فوجدناه على شفير

الحوض وحوله جماعة من الهاشميين كأن الشمس تطلع من وجوههم ، والمقداد بن الاسود الكنـــدى قائم على رأسه ، فى يده لواء أخضر من سندس الجنة منشور ، ومنبر الدولة يخاطبه فى بنى سرايا ، ويقول : يا أمير المومنين ، ما كان ظننا به هذا ، فقال : ما اوبقكم وأوبق أمركم الا معز بن حسن بكثرة ما رفـــع عليكم مـــن العظائم والا كنت قد خلصتكم مـــن أول النهار ..... والتفت الينا وقال : انتـــم ما تريدون ؟ فقلت أنـــا : يا أمير المومنين ، نحن قوم من أهل العلم والقرآن وقد بلغ بنا الجهد من شدة العطش ، ونسألك ان تنعـم علينا وتطلق لنا الورود . فقال لى ـ صلوات عليه ـ مسترسلا الى يهزأ بى ويمجن معى : أى آية فى كتاب الله بها مائة واربعون عينـــا ؟ فقلت : أعرفهـا والله يا أمير المومنين ، فقال : صدقت ، فقيـــل : يا أميـر المومنين من أيـن عرفت صدقه ولـــم تسأله ؟ فقال : بشاشة المعرفة بها ظهرت فى عينيه . ثم قال صلـوات الله عليه : هذا الحوض بين ايديكم ، ردوا كيف شئتم، فصاح قسيم الاعور من بعيد : الله الله يا أمير المومنين، لا يتم على أمير المومنين محالهم ، هـــؤلاء والله أشد الناس كفرا ونفاقا وأشدهم نصبا وانحرافا وهم عبيد يزيد ، فقلنا له : يكذب والله يا أمير المومنين وقد رمانا بالافك والبهتان ، فقال : هل لكم من يعرفكم بغير الذى يقول ؟ قلنا : نعم يا أمير المومنين ، الشريف الدويدة الرواس والشريف العصيدة رسول القاضى والشريف زقازق الذى يبيع اللحم فى القبـة والشريف نفيقامن الذى كان ضامن الخمر والقيان فى دمشـق ، هـؤلاء أولادك وذريتك ـ صلوات الله عليك ـ يشهدوا ببراءتنا من هذا الملعون ، واغتاظ الحسين ـ صلوات الله عليه ـ من ذكر هؤلاء وصفق بيديه وقال : لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، اليـــوم يشمت بنا بنـــو أمية ، فالتفت أمير المومنين الينا وقال : لا شك انكم من عبيد يزيد ، قد شرعتم تسبونا بطريق لطيف ، هـؤلاء الذين ذكرتم من ذرية ابليس اللعين ومـــن أولاد الشيطـان الرجيم ، ان كان لكم ثقة يشهد لكم ببراءتكم والا فلا تقربوا هذا المكان » فيغادرون المكان بحثا عن الشريف أبى العباس النقيب ليشهد لهم .

11 ـ بين زيد الدين بن الحكيم وملك النحاة :

« فلقينا زين الدين بن الحكيم ومعه امم من النساء لا يحصيهم الا الله تعالى وهـــم يسحبونه الى عرصـة القيامة والقصاص ، وملك النحاة رائح خلفهم يحرضهم عليه ويغريهم به ويقول له : مـا يخلصك اليوم مـن هؤلاء لا شعرك الركيك ولا رسائلك الباردة ولا بد لك من الاجتماع بأبيك الرابض فى أمك الهاوية وهو يقول لك : خرب بيتك ، اى شىء بينى وبينك ، هجوتـــك وهجوتنى وشتمتك وشتمتنى ، وقـد راح هذا بهذا ، ونحن من أهل العلم ولا يليق بنا الا المحاللة والاستغفار لانك فى موقف صعب ، وأنا رائح الى رب كريم رجائى به حسن وظنى به جميل ، فانكسر أبو نزار ورجـــع عنه خجـلان » .

12 ـ مرور موكب النبى صلى الله عليه وسلم

«ثم ترتفع الضوضاء واذا بموكب عظيم مقبل من المقام المحمود كأنهم الشموس والاقمار ركبان على نجائب من نور يؤمون المشرعة العظمى من الحوض ، فسألنـا عنهم فقيل هذا سيد البشر صلى الله عليه وسلم فـى أصحابه وأهل بيته ، فنجرى خلفه ونجهد أنفسنا فى طلبه فلم نصل اليه من شدة الزحام ، فصعدنا على تل مشرف من جبل الاعراف حتى عبر علينـا وعن يمينه ويساره أبو بكر وعمر وبين يديه أولاده الصغار مـــع الحسن والحسين ومن ورائه حمزة والعباس وجعفـر وعقيل وبقية أصحابه بمشرف مع المهاجرين والانصار ، وهو يصغى تارة الى حديث على وتارة الى حديث عثمان وهما فيما بين أولاده الصغار وبينـه والناس يضجون بالبكاء ويشيرون اليه بالايدى ويستغيثون عليه من كل مكـــان » .

13 ـ الصوفية يطلبون شفاعته :

« فلما انتهى الى شاطىء المشرعة وقـف عندها ، فانجاب اليه الصوفية من جميع الاقطار يقدمون اليه أخلة الاسنان والشيشات ، فسأل عنهم ، فقيـل له . هؤلاء قوم غلب عليهم العجز والكسل على طباعهم فـى الدنيا فهربوا من كـــد الصنائع والاعمال الى زوايـا المساجد والمشاهد بحجة العبادة والانقطاع ، فلا يـزال أحدهم يأكل وينام الى أن يموت . قـال : فبأى شىء كانوا ينفعون الناس ويعينون بنى آدم ، فقيل : والله ولا شىء البتة ، ولا كانوا الا مثـل شجر الخروع فى البستان يشربون الماء ويضيقون المكان وليس لهـــم ثمرة ، فيكاسر عنهم فيأخذون حشيشاتهم وينصرفون ».

14 ـ قدوم أسد الدين ونجم الدين ثم صلاح الدين :

« ثم يأتى أسد الدين ونجـــم الدين راكبين على فرسين كالعروسين وعلى كـــل واحد منهما خلعتان :

خلعة الحج وخلعة الجهاد ، كل خلعة تساوى ملك الارض سبعين مرة ، وأسد الدين رائح يطلب من النبى صلى الله عليه وسلم خلعة فتوح مصر ، ونجم الدين يقول له : لا تذكره بمصر فهو موغر الصدر لاجلها ، فيقول له أسد الدين : قد ذكر العلماء بالانساب ما بين ملوكها وبينه قرابة وكتبوا بذلك خطوطهم فى المشارع ، وبعد هذا فما أذكرها له . وانتهى اليهما صلاح الدين فأخذاه واوصلاه الى النبى صلى الله عليه وسلم وامراه بتقبيل يديه ورجليه ففعل ذلك ومسح على رأسه ودعا له بالنصر والتاييد وأوصاه بالضعفاء والمظلومين » .

15 ـ العثور على الشريف النقيب أبى العباس :

« وأقبلنا نحن نطلب الشريف النقيب الى أن وجدناه واقفا مع جماعة من البوابين يسألهم عن بطليموس الحكيم هل نصيح الكواكب السبعة طائع أم لا ، وهل قام الدليل والبرهان على أن للكواكب أطوالا وعروضا أم لا ، فلما رآنا قطع الكلام والتفت الينا فسلمنا عليه وقلنا له : نظام الدين عسى تتفضل علينا وتمشى معناساعة تشهد لناعند أميرالمومنين بالبراءة مما قذفنا به من النصب والانحراف عن أولاد فاطمة عليها السلام ، فقال لنا : والله انى فى هذا الوقت مشغول بنفسى ، وعلى أن شهادتى ما تنفعكم لانى رميت فى مجلسه بالفلسفة والعمل باحكام النجوم ، وقد أضرنى ذلك عنده وزوى وجهه عنى ، وانا من ذلك فى خطر كبير » .

16 ـ الاستشفاع لاجل الورود بالسادة من بنى عبد شمس :

يأتى قسيم الاعور المنحوس فيشير عليهم بأن يتبعوه ليدلهم على من يسقيهم الماء من الحوض .

« ومشينا معه مقدار اربع فراسخ واذا بجمع عظيم يحتوى على شيوخ وشباب وكهول قد حف مجلسهم بالسكينة والوقار وجلالة الملك ، والرياسة تلوح على وجوههم ، فسألنا عنهم فقيل لنا : هؤلاء السادة والقادة من بنى عبد شمس ، فدخل قسيم الاعور حتى دخل بين يدى عظيمهم فقال له : يا خال المومنين ، ياكاتب وحى رب العالمين ، نحن قوم من محبيكم ، قد طردنا عن الحوض لاجلكم ، ونحن هالكون لشدة العطش بسببكم. فقال : لك بينة تشهد بما تقول ؟ فقال : نعم جماعة من شيعتكم ومحبيكم الاكراد . فقال : احضرهم . فقال : ابعث معى رجلا من اجلاء وزرائك يساعدنى عليهم ، فبعث معه رجلا شاميا ، فتخلل الناس ونادى بأعلى صوته : يا عبد الملك بن درباس قاضى قضاة مصر فى أيام الناصر صلاح الدين ، فلم يجبه أحد .

فوقع ابن بدر الى الارض مغشيا عليه من شدة الاوام فقعدنا عند رأسه وسألنا : هل عندكم من قطرة ماء نبل بها حلقه ؟ فقال : لا والله ، لو تقدمتم قليلا لما احتجتم الى هذا كله ، فقلنا له : وكيف ذلك ؟ قال : لان أم حبيبة ، زوج النبى ، صلى الله عليه وسلم ، تبعث الى أخيها معاوية كل يوم خمس ثلجيات مزملات ، كل ثلجية مثل جبل الثلج عشرين كرة ، فيها الماء الخاص من عين التسنيم ، تدفع واحدة منها الى عمرو بن العاص والاخرى الى زياد بن ابى سفيان وذويه والاخرى الى سعيد بن العاص وذويه وتقسم الواحدة فى آل سفيان» .

« وما كان باسرع من أن حضر القاضى فى جماعة من الاكراد فتقدموا الى معاوية فسلموا عليه ، ثم التفتوا الى ابنه يزيد فقالوا : السلام عليك يا امام العدل ، السلام عليك يا خليفة الله فى الارض ، السلام عليك يا ابن عم رسول الله ، السلام عليك يا أمير المومنين ورحمة الله وبركاته ، نفعنا الله بطاعتك ، وادخلنا فى شفاعتك ، ورفع درجتك فى الجنة كما رفعها فى الدنيا ، فرد عليهم ردا حسنا ، وقال القاضى صدر الدين : الحمد لله الذى جعل فى شيعتى وأصحابى من يصلح أن يكون قاضى قضاة المسلمين ، فقال له القاضى : كل ذلك ببركة الفقيه عيسى ضياء الدين ، فقال له : اوصيك بأصحابك الاكراد خيرا فانهم اولى بحسن تدبيرك من سائر الناس ، فقال : نعم يا أمير المومنين ، ما احتاج فيهم وصية ، هذا انا قد وليت القضاء لجماعة منهم انا أعرفهم فى بلادنا لا يعيشون الا من لصوصية البقر فى الليل وسرقة الحمير بالنهار ، ولم أفعل ذلك الا لانى ألزمت باستقضاء قوم أنحس منهم بكثير » .

17 ـ الورود على الحوض فى حماية جيش من اليمانية :

يزيد يسأل قاضى الاكراد عن الوهرانى واصحابه ، فيذم أبا القاسم الاعور ، ويرى فى موالاته للامويين تكسبا ، ويمدح العليمى ، ويقول فى الوهرانى : واما هذا فهو مغربى ، حضرت معه دعوة فيها جماعة من الاعيان ، وجرى حديثك ، فترضى عنك ، وسال الله أن يحشره معك » . فيأمر يزيد عبيد الله بن زياد بأن يأخذ معه الف رجل من السكاسك والسكون ، ويقصد المشرعة التى عليها سهل بن حنيف ويأمره أن يزيلهم عنها بالقوة ويكفل الورود للجماعة ، فاذا جاء الاشتر

ثبت له حتى يلحق به المدد ، فينصحه معاوية بارسال ذى الكلاع الحميرى بدلا من عبيد الله بن زياد .

« فما استتم القول حتى استالم القوم وتقدموا بين أيدينا يرفلون فى الحديد لا يلوون على شىء فقلت لك : كانت وقعة صفين فى الدنيا على دم عثمان ، ووقعة صفين فى الآخرة حتى نشرب نحن سم الموت ويسمع النبى صلى الله عليه وسلم فيخرجنا من الشفاعة ؟! فتقول : النبى صلى الله عليه وسلم أجل من هذا » .

ويلحق بهم أبو القاسم الاعور طالبا ان يأخذوه معهم ، فلا يجيبون ، فيصيح مستنفرا قبائل العراق ضدهم وهو يقول : «الى أين يا بقر الشام ، يا شيعة الطاغوت ، يا عبيد الطلقاء » .

18 ـ الورود وتمنيات العليمى :

« وأقبلنا نحن نشرب ونستريح وتقول لى : أين أنت من عين ماء الديباج ، كنت أشتهى الساعة قطعة صابون رقى وقليل تراب مراغى أغسل بها لحيتى فانها قد اتسخت من الغبار والعرق . وقلت له : ما نحتاج الى شىء من هذا ، الساعة نستريح منها ، فقلت لى : وكيف ذلك ؟ فقلت لك : لا شك ان كنت من أهل السعادة ، فما يدخل الجنة الا اجرد أمرد ، وان كنت من أهل النار فالزبانية يعملون منها الفتائل توقد ليلة الميلاد فتيلة على باب جهنم » .

19 ـ على وشيعته ياخذون الطرقات على الشاميين:

« فبينا نحن فى أطيب عيش واهناه ، واذا بصيحة عظيمة قد اقبلت واصحابنا يتطايرون لا يلوى أحد على أحد ، فطارت عقولنا وبقينا حائرين لا ندرى الى أين نروح ، وقلنا : يا قوم ، ما هذا ؟ فقالوا : هذا على عليه السلام قد أخذ الطرقات على الشاميين وجاءتنا سرعان الخيل فيها محمد بن الحنفية يزأر فى أوائلها مثل الاسد الهصور » .

20 ـ محمد بن الحنفية يسدد الرمح نحو الوهرانى ليطعنه :

« فلما انتهى الينا ، صاح بنا صيحة عظيمة هائلة وصمم الى بالسنان ليطعننى ، فوثب بين يديه ، فوقعت من سرير الروم ، فانتبهت خائفا مذعورا ، ولذة ذلك الماء فى فمى ، وطنين الضجة فى أذنى ، ورعب الوقعة فى قلبى الى يوم ينفخ فى الصور ولى حينئذ عذاب شديد وأصلى سعيرا وأدعو ثبورا ، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا» .

3 ـ رسالة السائل والمجيب :

هذا هو الاثر النثرى الثانى الذى حاكى فيه مؤلفه رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد ، محاكاة شكلية ، وصرف القول الى غايات مختلفة . ولسنا نعرف اسم المؤلف على وجه التحقيق ، ولكنا نعلم انه اندلسى المنبت ، وانه هاجر من بلده : «وقد انشبت الفتنة أظفارها واوقدت بالجزيرة نارها» ، وهو يتحدث عن سفينة حملته الى بلاد الروم ، وعندما سئل عن اسمه هناك قال انه «محمد» ، وانه سليل عرب ينتمى الى الانصار ، وأنه خدم بهذه الرسالة ابا زكريا يحيى بن زيان . وقد جاء فى فهرست المخطوطات العربية المحفوظة فى الخزانة العامة برباط الفتح (18) انه كتبها لابى زكريا يحيى بن زيان بن يغمراسن بن زيان ، أحد ملوك بنى عبد الواد بتلمسان . وأنا أستبعد ذلك لامرين : أولهما ، ان ليس فى ملوك بنى عبد الواد من اسمه يحيى بن زيان وكنيته أبو زكريا ، وثانيهما : انه قد صرح فى رسالته أنه قد كتبها : «للحاجب الامضى ، الوزير الارضى ، حامى ذمار الدين ، وقامع طغاة المفسدين ، محيى شرف بيته الغابر ، ورافع ذكر سلفه فى صدور المحارب ، وظهور المنابر ، أبى زكريا يحيى ابن زيان » ، فقد وصفه هنا بانه حاجب ووزير لا ملك ، وهذه الصفة تنطبق على احد اثنين :

(1) أبى زكريا يحيى بن زيان الوطاسى ، الذى كان وزيرا وحاجبا للسلطان عبد الحق بن أبى سعيد المرينى ، وقد توفى هذا الوزير سنة 852 .

(2) أبى زكريا يحيى بن يحيى بن زيان ـ ولد المتقدم ـ الذى كان حاجبا ووزيرا أيضا فى الفترة نفسها بعد ابيه .

وعلى هذا يكون الاديب صاحب الرسالة التى هى موضع بحثنا من ادباء القرن التاسع الهجرى .

أما رسالته فقد سماها : «رسالة السائل والمجيب ، وروضة نزهة الاديب» (19)ـوقد جعلها فى خمسة وثلاثين

---

(18) الجزء 2 : 58

(19) الورقة 2 من مخطوطة الرباط .

بابا ، ولكنها ناقصة أيضا من آخرها اذ لم يرد منها الا 26 بابا وآخرهذه الابواب غيركامل ايضا والباقىمنها يقع فى44 ورقة ، مسطرتها17 ومقياسها 225 × 105 وقدكتبها بخط مغربى جميل ، وفى أوراقهـــا اضطراب ونقص وفهرست هذه الرسالة يوضح طبيعتها ، ولكنى لست أعدد جميع الابواب فيها بل اكتفى باول عشرة منها :

الباب الاول : فى الآداب

الباب الثانى : فى ذكر مؤمنى الجن وشىء مـــن حكمهـــم

الباب الثالث : فى الخطابة

الباب الرابع : فى مجلس الواعظ

الباب الخامس : فى مستغرب الحكايات

الباب السادس : فى أول من تزوج من الملوك

الباب السابع : فى لمحة من غرائب الاخبار وشىء من الامداح

الباب الثامن : فى الهجاء

الباب التاسع : فى أسخياء الملوك وأجواد الاسلام

الباب العاشر : فى أخبار الحلماء

وتلتقى هذه الرسالة مع رسالة التوابع والزوابع فى طبيعة المقدمة التى جعلها الكاتب الباب الاول ، فقد جاء فيها : «كنت لما بقل العذار ، وتعين الاعذار ، أهيـــم بالاسفار ، على حالة الاثراء والاصفار ، خالعا فى حبها الرسن ، وهاجرا من أجلها الوسن ، أهيم بهـا هيـام الحرباء بالشمس ، وأحن اليها حنين الجسم للنفس .... الخ » ويستخدم فيها الكاتب شخصية من الجن يسميه: « بشير بن النعمان » ولكنه يختلف عن زهير بن نمير جنى التوابع والزوابع فى سعة احاطته ، فليس هـو ملهما للكاتب ، وانما هو عالم واسع الاطلاع قد ضرب فى كل علم بسهم ذلك ان الكاتب حين سأله «فهـــل تعاطيت من العلوم سلسالا وشربت باكرا بها زلالا » ؟ أجابه بقوله : « انا مزن ودقها ، وشمس أفقها ، وانا فى ايضاح معمياتها ، واستخراج مخبآتها ، عين النادرة، ونقطة الدائرة ، لاأترك الحقائق الى نقـل الرقائق » . وكل من هذين الجنيين انما يمثل طبيعة صاحبه الانسى، واذا كان الثانى منهما عالما فذلك يوضح اى وجهـــة تتخذها رسالة « السائل والمجيب» . اذ يقول الكـاتب فى تصوير صاحبه «فرأيت رجلا قد جمع رقة اليمـن الى ظرف الحجاز ، وعرف طرفى الحقيقة والمجاز ، ونظرفى علم أقليدس ونفطويه ، وأنسى الخليـل وسيبويه ، لا يوازيه الجاحظ فى بيانه ، ولا سحبان وائل فى زمانه، ان تكلم أسمع السحر الحلال ، وان استمع أراك حكم الاصغاء والاقبال ، وان ترنم أنسى المثـالث والمثانى وان داعب اوقفك على قصور الحسن بن هانى » . فاذا أردنا الدقة قلنا انه يجمع بين الادب والعلم ، وانه بذلك يرمز للكاتب نفسه .

ويظل الشبه بين الرسالتين قريبـــا فى الفصول الاربعة الاولى ، ففيها يعرض الكاتب – كما فعل ابـن شهيد من قبله – نماذج من شعره ونثره ، أما الشعـر فينسبه مباشرة الى نفسه ، وهو شعر محكم جزل اذا قسناه بالعصر الذى عاش فيه الشاعر ، وأما النثـر فينسبه الى الجن ، وهو يورده حينا على شكل حكـم قصيرة مثل : لكل امرىء شغل فى بدنه لو عقـل – ليس العالم الذى يعلم الخير والشر ولكنه من يعلـم خير الشرين – من تكلف امرا بغير علم أعياه الطب – الناس تحت يديك ما رجوك – رب حسب آفته الفقر ، وكثير من هذه الحكم محور عن بعض أقـوال سائرة ، وحينا يكون نثره خطبة أو وعظا ، وهو ايضا منسـوب الى الجن ويشغل البابين : الثالث والرابـــع ، وبهذا ينتهى القسم الاول من الرسالة ، وبعـد ذلك يتوجـه الكاتب وصاحبه الجنى الى العلماء ، وتكون الفصول الباقية من الرسالة فى شؤون من العلم ، وهى تتناول أخبار الحلماء والفصحاء والبلغاء والفرق بين الفصاحة والبلاغة ، وفصولا عن الفكاهة والامثال وغرائب الحيوان، وشيئا من علم أصول الدين ، والادلة على وجـود الله والحديث عن حشر الاجساد ، وحقيقة أصول الفقه وعلم المنطق والنحو وغير ذلك . أما الفصول التـى ضاعت من الرسالة فهى :

الباب السابع والعشرون : فى وجوب الزكاة .

الباب الثامن والعشرون : فى شروط وجوب الصيام

الباب التاسع والعشرون : فى الاطعمة

الباب الموفى ثلاثين : فى اقامة الحدود

الباب الحادى والثلاثون : فى الطيب

الباب الثانى والثلاثون : فى وصية الحكيم وفصول من الحكـــم .

الباب الثالث والثلاثون : فى ذكر شىء مـن سر السلاطـــين

وكل هذا يشير الى سعـــة المجال الذى حـــاول المؤلف أن يستوفى الحديث عنه فى رسالته ، حتى كأنه أراد أن يجعل منها موجزا لجميع ما توفر لديه مـــن المعارف ، دون مراعاة لاى تسلسل فى الترتيب والتصنيف ويمهد الكاتب للانتقال الى منازل العلماء بقولـــه

مخاطبا الجني « قلت : مل بنا الى العلماء الحكماء ، فصار يجد السير الى أن بلغنا الى ربوة قد قامت على ربـــع انفساح ، تهب بها الرياح ، واذا أرض بديعة التقسيم تستشعر النفس فيها الافواح ، ويهزها نسيم ارتياح ، فقلت : ومنشيء هذه البنية ، ومفترض الفدية ، انهم لعلماء حكماء وان في منزلهم لآية ، تنبيء على سعـــة الدراية . ثم حللنا بناديهم فرأيت عليهم من السكـون ما لا كان مثله ولا يكون ، فسلمنا وردوا عن هدوء ووقفنا فأشاروا بالدنو ، ثم قالوا : مرحبا بك يا بشير بـــن النعمان وبصاحبك ، أي شيء أقدمكما ومـا مأمكما ، فقال له بشير : ان بصاحبي لحاجة الى الاقتطاف مـن زهركم والاقتناء من دوركم فقالوا مرحبا به وبمقدمه ، أين منزلته من العلم ومحله من الفهم ، لنحتذي حذو مقداره ، من ايراد القول واصداره ، فقال : لا أثر بعد عين ، ولا وجه مع التحقيق للمين» . عندئذ ندبـــو له شيخا من شيوخهم اسمه عامر ، ومن غريب أن هـــذا الانسي الذي ذهب «يقتطف من أزهار الجن» قد تصدى للامتحان ، فأخذ عامر يسأله وهـــو يجيب ، وكانت أجوبته هي المحصول الذي تضمنته سائر فصول الرسالة، ولا ندري هل وجه في الفصول التي ضاعت شيئا من الاسئلة للجن ، وان كانت طبيعة اسماء الفصول لا تنبيء عن ذلك ، وعلى هذا تكون الرسالة في مجموعها متأثرة بروح «التوابع والزوابع» فهي معرض لقدرة كاتبها في الشعر والنثر وفي فنون ما يحسن من العلم ، غير انها تفارق التوابع والزوابع في خلوها من السخرية والنقد، وتبتعد عنها في قلة الاحتفال برسم الجو الطبيعي أثناء تنقل الكاتب في ديار الجن .

وقد شاع في الرسالة جو اندلسي قـــد نتخذه دليلا مؤيدا لما قدرته من نسبته الى الاندلس ، فهـو يروي عن الفقيه المحدث أبي مروان السلاهمي صاحب الاحكام بغرناطة حكاية عن أحد مؤمني الجن . وذكر ان بعض الشعراء مر بقصور الامويين بقـرطبة وقد غـير البلى رسمها ومحت أيدي الخطوب وسمها فأنشد :

قلت يومـا لدار قوم تفانـوا
أين سكانـــك الكـــرام علينا
فأجابت هنـــا أقاموا قليـــلا
ثم ساروا وليت أعـرف أينـا

وأورد حكاية أخرى أخرى مشابهة في تغير قرطبة ومعالمها (20) . ولما تحدث عن كرم الملوك وسخائهم قال : «كل ملوك بني أمية قد اتصفوا بالكرم ، وفوقهم هشام بن عبد الرحمن» وقص حكاية صاعـــد وكيف أهدى المنصور بن أبي عامر بقرطبة ابلا في عنقه حبل وسماه غرسية فكان فالا حسنا لان غرسية بن شانجة بعدئذ جاءه مقيدا ، وهي حكاية اوردها ابن بسام فـي الذخيرة ونقلت في مصادر أخرى . فهذه الاخبار تدل على اهتمام خاص بالاندلس ، وان كانت الاخبار عـــن المشرق واهله أكثر واغزر . ولو جاءتنا الرسالة كاملة لكانت أثرا حقيقا بالتحقيق والنشر ، فهي على ايجاز في قصدها متنوعة الفوائد .

احسان عباس

---

(20) الورقة : 17 من المخطوط .